

# مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

- المنتدى التربوي و إرساء مدرسة النجاح
- التدريس بالمجزوءات
- تطبيقات على البيداغوجيا الفارقية
- الدرس العلمي والتغيير الاجتماعي
- الاحترافية في التدريس
- المدرسون تحت المجهر
- تقويم كفايات التلاميذ
- ظاهرة الغياب المدرسي



العدد السادس والأربعون - دجنبر 2010

## المدرسون تحت المجهر:

### هل بإمكان الطلبة تقييم مردودية مدرسيهم؟

✍ حسن بلحياح \*

#### 1 - مدخل عام

في الآونة الأخيرة كثر الحديث في بلادنا عن موضوع الجودة في التعليم، وفي هذا الإطار تم تنظيم عدة ندوات وورشات للتعريف بهذا الموضوع، من بينها ندوة الجمعية المغربية لأساتذة اللغة الإنجليزية تحت شعار «تقييم الجودة في تعليم اللغات» التي نظمت بالجديدة في أبريل 2008 بشراكة مع وزارة التربية الوطنية وتكوين الأطر، وورشة «ضمان الجودة في التربية

والتكوين» التي نظمت بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء في مطلع السنة الفارطة بمبادرة من المركز الثقافي البريطاني بالمغرب، والتي حضرها حوالي 200 مشارك من بينهم عمداء ورؤساء الجامعات وثلة من المسؤولين عن ضمان الجودة في الجامعات المغربية.

في هذا المقال سأركز على إحدى أكثر الآليات استعمالا عند تقييم جودة التعليم داخل المؤسسات التعليمية وهي تمثلات الطلبة حول مردودية مدرسيهم. تستعمل هذه التمثلات من طرف المسييرين الإداريين وأصحاب القرار لأغراض عدة من بينها رصد المردود التربوي للمدرسين، واتخاذ القرار إما بالإستبقاء أو الطرد أو الترقية تبعا لمجموع النقاط المحصل عليه من طرف المدرس. ونظرا لسهولة إعداد وتديبر هذه التمثلات فإن ما يقارب 90% من الجامعات الأمريكية تستعملها على نحو دوري (بيتر سيلدن Peter Seldin). ليست هناك

\* أستاذ باحث، جامعة الحصن بأبوظبي الامارات العربية المتحدة

إحصائيات دقيقة فيما يخص مدى استعمال تمثلات الطلبة لتقييم المدرسين في المغرب لكن من المؤكد أنها تستعمل في بعض المؤسسات التي تعتمد اللغة الإنجليزية كأداة للتدريس، من بينها المركز الثقافي البريطاني للغات، والمركز اللغوي الأمريكي وجامعة الأخوين بإفران، كما أنها تستعمل في بعض الأقسام بكلية علوم التربية بالرباط.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كالتالي: هل آن الأوان لباقي المدارس والجامعات بالمغرب للسير على منوال هذه المؤسسات التعليمية واعتماد تمثلات الطلبة كوسيلة فعالة لتقييم الجودة في التعليم؟ يحاول هذا المقال الإجابة عن هذا التساؤل عن طريق تمحيص الشوائب المرتبطة بتقييم الطلبة لمدرسيهم. وبصفة أدق سأقوم في هذا المقال باستعراض المشاكل النظرية والتطبيقية المتعلقة بمحاولة تقييم جودة التعليم اعتمادا على النتائج الرقمية للطلبة. وكما سيوضح المقال فهذه المشاكل بإمكانها تحويل تمثلات المدرسين من أداة ناجعة لتقييم مردودية التعليم إلى وسيلة لقياس درجة شعبية المدرس. كما أن بإمكانها تضليل المسؤولين بخصوص ما يحصل داخل الفصل الدراسي. وأختم المقال بمقترحات تتعلق بكيفية استعمال وتطوير تمثلات الطلبة لتفادي هذه العراقيل، وكذا مناقشة بعض الوسائل التي يمكن الإستعانة بها جنبا إلى جنب مع تمثلات الطلبة عند تقييم الأداء التربوي والتعليمي للمدرس.

قبل البدء في تمحيص مدى نجاعة تمثلات الطلبة كألية لتقييم أداء المدرسين، أود أن أعطي نموذجا لهذه التمثلات حتى يتسنى للقارئ تكوين فكرة عامة عنها وكذا طريقة استعمالها. عموما عند نهاية كل فصل دراسي، يتوجب على كل مدرس توزيع أوراق التقييم على الطلبة لتعبئتها. بعد ذلك يقوم المدرس بتعيين طالب ما أو زميل له بالمكوث في الفصل لجمع التمثلات داخل ظرف وإعطائها للمسؤول الإداري، مما يعني أنه يتوجب على مدرس المادة مغادرة القاعة إلى حين انتهاء الطلبة من تدوين أجوبتهم وآرائهم. وفيما يلي نموذج لإحدى الإستمارات المستعملة حاليا في إحدى المؤسسات السالفة الذكر لهذا الغرض:

عزيزي الطالب: المرجو الإجابة عن الأسئلة أسفله مع عدم تدوين اسمك على هذه الإستمارة. نحيطك علما بأن مدرسك سيأخذ أجوبتك بمحمل الجد من أجل تطوير المادة التي يدرسها كما أنه بإمكان المؤسسة أن تأخذ أجوبتك بعين الاعتبار عند مناقشة قرار الإحتفاظ بالمدرس أو ترفيقته. ومادامت هذه القرارات بغاية الأهمية، نرجو منك عزيزي الطالب أن تدون أجوبتك بكل صدق وشفافية.

## الجزء الأول

1. ما هو تقييمك لمدى استعداد وتحضير المدرس للمادة المدرسة؟				
ضعيف	مقبول	متوسط	حسن	ممتاز
2. ما هو تقييمك لمدى قدرة المدرس على شرح المادة؟				
ضعيف	مقبول	متوسط	حسن	ممتاز
3. ما هو تقييمك لأسلوب تدبير المدرس؟				
ضعيف	مقبول	متوسط	حسن	ممتاز
4. ما هو تقييمك لطريقة تصحيح المدرس للفروض؟				
ضعيف	مقبول	متوسط	حسن	ممتاز
5. ما هو تقييمك لأجوبة المدرس خلال استشارائك له؟				
ضعيف	مقبول	متوسط	حسن	ممتاز
6. ما هو تقييمك لهذا المدرس مقارنة مع بقية المدرسين في المركز؟				
ضعيف	مقبول	متوسط	حسن	ممتاز
7. ما هو تقييمك لمدى جودة المعلومات التي حصلت عليها في هذه المادة؟				
ضعيف	مقبول	متوسط	حسن	ممتاز

## الجزء الثاني

8. باختصار بما تنصح مدرسك لكي يدرس بطريقة فعالة؟	
9. ماهي باختصار نقاط قوة مدرسك؟	
10. لو أعطيت لك فرصة الاختيار هل تحب أن تدرس مع هذا المدرس في المستقبل؟	
لا	نعم

## 2. المسائل النظرية

### ثلاث الطلبة: أداة لتطوير جودة التعليم أم آلية لممارسة التحكم الهرمي؟

مما لا يختلف فيه اثنان أنه من الصعب بمكان لأية مؤسسة تربوية أن ترقى بجودة تعليمها بدون أن تتوفر على مدرسين بدرجة عالية من الكفاءة والعلم. كما أنه من المسلمات القول بأن المؤسسات التربوية التي لاتعمل على تقييم عملها. بما في ذلك عمل المدرسين - بصفة دورية وموضوعية لايمكنها أن ترقى بمستويي التعليم والتدريس بها. إذن فمن الناحية المبدئية يلزم على المدرسين ليس فقط أن يتقبلوا بصدور رحب عملية التقييم هذه وإنما أن يتخذوا هذه المبادرة بأنفسهم لتطوير أدائهم التربوي وأداء الأمانة المنوطة بهم على أحسن وجه. لكن امتحان عملية تقييم الطلبة لمدرسيهم يطرح أكثر من علامة استفهام.

إذا قمنا بقراءة سريعة للنموذج أعلاه لاتضح أن بعض الأسئلة لا تمت بأية صلة بتطوير الأداء التربوي للمدرسين. فالسؤالين السادس والعاشر مثلا يطلبان من الطلبة مقارنة المدرسين فيما بينهم. لنفترض مثلا أن أحد المدرسين حصل على نقطة ضعيفة في إحدى هذين السؤالين فما المطلوب منه بالضبط لتحسين معدله؟ هل تغيير طريقة تدريسه؟ أو طريقة تعامله مع الطلبة؟ وهل تحسين معدله في المستقبل يعني بالأساس الإرتقاء بمستوى تلامذته وتحقيق الجودة في التعليم؟ وفي غياب أجوبة شافية لمثل هذه الأسئلة يمكن القول إن الغرض من مثل هذه الأسئلة بالدرجة الأولى هو مقارنة معدلات المدرسين من طرف الإداريين واستعمالها كذريعة لتفسير دواعي ترقية البعض وعدم ترقية البعض الآخر، مما يمكن معه الانتهاء بالشطط في استعمال السلطة أو توظيف تمثلات المدرسين في غير محلها. وهنا أذكر مثال عميد إحدى الكليات بأمریکا الذي كان يضع لائحة خارج مكتبه بمعدلات المدرسين ابتداء بأعلى معدل ونهاية بأخر معدل، أخذا بعين الإعتبار العدد الثالث بعد الفاصلة، كما لو أن المدرسين متبارون في سباق المائة متر باللاولمبياد وليسوا بصدد مزاوله عملهم داخل مؤسسة تربوية هدفها تكوين أجيال واعدة، قادرة على خدمة المجتمع وتطويره.

هنا أتذكر نقاشا مهما لميشيل فوكو (Michel Foucault) في كتابه «المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن» تناول فيه بالتحليل مفهوم الإنضباط. يقول فوكو في ما معناه أن ممارسة عملية الإنضباط تفترض وجود جهاز همه الأول والأخير إرضاخ الناس للخضوع عن طريق ترصد تحركاتهم. ويقوم هذا الجهاز باستعمال آليات تضمن وضوح رؤية وقع

السلطة على المرؤوسين، وفي المقابل فإن هذه الآليات تجعل المرؤوسين ظاهرين لرؤسائهم بصفة جلية جلاء الشمس. ويضيف فوكو بأن مؤسسات الإنضباط هاته نجحت في خلق جهاز مراقبة «machinery of control» يشبه الى حد كبير مجهرا للسلوك

«microscope of conduct». إذن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: هل الغاية من تقييم مردودية الطلبة لمدرسيهم هي مساعدة المدرسين على تطوير أدائهم التربوي بما يرجع بالنفع على طلبتهم؟ أم هي طريقة لوضعهم تحت المجهر والتأكد من أن سلوكياتهم داخل الفصل لن تقلت من عيون المراقبة؟ الجواب عن هذا السؤالين مهم خاصة إذا عرفنا كما تم الإشارة أعلاه أن بعض الأسئلة توضح بجلاء أن لاعلاقة لها بالتعلم والتعليم. كما أن استعمال كلمة المراقبة «control» كلما تم التطرق الى الجودة يوضح أن المسؤولين عن عملية التقييم - بعلمهم أو بدون علمهم المسبق - بصدد الإنخراط في آلية تحكم يقومون بواسطتها بمراقبة مرؤوسيههم بطريقة أفقية تجعل المدرسين مختزلين على شكل أرقام أو ملفات يمكن للمسؤولين الإستعانة بها عند ضرورة الحسم في مستقبل المدرس بالمؤسسة.

هذا يجرنا الى تساؤل آخر ألا وهو: لنفترض جدلا أن عملية التقييم يجب أن تشمل ليس فقط من له سلطة مباشرة على المدرس كالمفتش أو المدير، وإنما أيضا من يوجد تحت سيطرة المدرس - يعني التلاميذ والطلبة - وذلك للإستفادة من آرائهم مادام بإمكانهم أن يروا الأشياء من زاوية مختلفة. إذا قبلنا بهذا الطرح وتم الاتفاق بالفعل أنه لنجاح أية مؤسسة، تربوية كانت أو غير تربوية، ليس هناك بد من الاستماع لآراء الرؤساء والمرؤوسين على حد سواء، فلماذا نستثني الرؤساء من عملية التقييم؟ أو بعبارة أخرى لماذا يتم تغييب صوت المدرس عند عملية تقييم مديره أو عميده؟ أليس من المنطقي الاستماع الى آراء المدرسين من طرف من له سلطة عليهم حتى يتيقن من مدى اتقانه لعمله؟ أليس من المفيد للرئيس أو المدير أو المفتش مثلا الإصغاء لآراء المدرسين لكي يطور طرق عمله فيما يرجع بالنفع عليهم وعلى مجتمعاتهم. ديمقراطية عملية التقييم إذن تفترض وضع الجميع تحت المجهر تلميذا كان أم مدرسا، مفتشا كان أم معلما، مديرا كان أم حارسا عاما. من الصعب بمكان اقتناع المدرسين بأن تمثالات التلاميذ والطلبة ستساعدهم على تطوير كفاياتهم في التدريس وفي نفس الوقت نستثني من يوجد على قمة هرم المنظومة التعليمية من عملية التطوير هذه. سياسة الكيل بمكيالين هذه لا يمكن لها تطوير الأداء المدرسي لأنها مبنية على أساس غير متماثل وغير متوازن. هنا أشير الى أنه توجد هناك العديد من الشركات التي يقوم فيها المرؤوسون بتقييم رؤسائهم بطريقة دورية كشركة «موتورولا» و «جنرال الكتريك» و «بركتور وجامبل»

مستعملين في ذلك ما يصطلح عليه بنظام التقييم 360 درجة، لذلك يتوجب على المشرفين على عملية التقييم والجودة في التعليم التفكير في تطبيق هذا النهج بحذافره مادامت عملية تقييم الجودة هذه تستمد أسسها من عالم المال والأعمال وليس بناء على نظريات التعلم والتعليم.

## هل من الممكن قياس درجة نجاعة التدريس؟

إن مبدأ تقييم عملية التدريس يفترض وجود إجماع أو شبه إجماع بين المدرسين والمختصين فيما يخص الطرق الناجعة لتحقيق تعليم أفضل. لكنه ولسوء الحظ فهذا الإجماع غير موجود. فالمختصون في مجال التدريس ليسوا متفقين حول الطرق الناجعة لضمان جودة التعليم. بمعنى آخر فإن البحث العلمي في مجال التعليم لم يصل بعد الى الحد الذي يمكن معه الجزم بأن بعض الطرق البيداغوجية أكثر نجاعة من الطرق الأخرى. كما أن الباحثين لا يجمعون حول مصداقية النتائج التي تم التوصل اليها الى حد الآن في هذا الإطار. وهكذا فإن محاولة تقييم طريقة تدريس مدرس ما ستصطدم دوما بهذا العائق مادام الاختلاف حول الطرق الناجعة للتدريس مسألة لامفر منها. وعلى سبيل الإستئناس قام أحد المفتشين مرة بزيارة لاحدى حصصي التدريسية وكان له مأخذ واحد على طريقة تدريسي وهو أنني تركت باب الفصل مفتوحا. في نظره هذه الطريقة تشجع التلاميذ على التأخروتبعاً لذلك يجب ترك الباب موصودا في وجوههم. بالفعل هذا الأمر منطقي لكن ليست هناك دراسات تؤكد ذلك كما أنه رأيت أساتذة بارزين من قبل يتركون الباب مفتوحا وآخرون يتركون القرار للطلبة، هؤلاء أيضا لهم أسبابهم المنطقية في اختياراتهم.

بالإضافة الى هذه الإشكاليات فإن المدرسين والمختصين يختلفون حول كيفية تطبيق وتفعيل النظريات داخل الفصل الدراسي. وهذا ما يجعل العديد من المدرسين يعتمدون في تدريسهم على ماراكموه من تجاربهم السابقة على شكل قواعد شخصية أكثر مما يعتمدون على نظريات التدريس. وكما يوضح جاك ريتشاردس (Jack Richards) فإن هذه القواعد تعكس العديد من الجوانب التي تؤثر في الممارسات اليومية للمدرس كالدوافع الثقافية والأنظمة العقائدية والتجربة وطرق التكوين. وعلى هذا تصبح مسألة اختيار الجوانب التي يمكن أن تعطي الدليل على نجاعة طريقة تدريس مدرس ما أمرا مبهما وعلى درجة كبيرة من التعقيد.

هنا يمكن للمعارض لهذا الرأي مثلا طرح السؤال التالي: وماذا عن الطرق البيداغوجية

الحديثة والتي عرفت تطوراً كبيراً في السنوات الأخيرة؟ الجواب نجده عند جاك ريتشاردس وثيرودور رودجرز

(Jack Richards and Theodore Rogers). لقد قام هذان الباحثان بجرد لأهم المراحل التي مر منها تدريس اللغات عبر التاريخ مع استعراض الطرق البيداغوجية التي تتميز بها كل مرحلة، لكن كما يوضح الكاتبان فإنه لحد الآن لا توجد هناك دراسات توضح بما لا مجال فيه للشك بأن بعض طرق التدريس أكثر نجاعة من باقى الطرق، وهكذا فإن تغيير منهج ما في مرحلة تاريخية معينة إنما يعكس التغيير الحاصل في نوع المهارة اللغوية التي يحتاجها المتعلم، أو بعبارة أخرى فإن بعض المناهج كالمناهج التواصلية مثلاً أصبح يحظى بشعبية كبيرة وسط المدرسين ليس لأنه ذو نجاعة فعالة في تعليم اللغات وإنما فقط لأن المرحلة التي ظهر فيها كان التركيز فيها على كفايات التواصل الشفهية عوض الكفايات الكتابية. إذن سنكون مجانين للصواب إذا حاولنا فرض طرق بيداغوجية معينة على حساب طرق أخرى خاصة عند غياب الدليل القاطع على فعاليتها أو عندما تصطدم مع القناعات الشخصية والفلسفة التربوية لكل مدرس على حدا.

### 3. المسائل التطبيقية

لو سلمنا بأنه يمكن التوصل الى حل وسط لمعالجة المسائل النظرية المتعلقة باعتماد تمثيلات الطلبة كأداة لتطوير وتقييم العمل التربوي للمدرس إما عن طريق ديمقراطية هذه الأداة وتعميمها على الجميع أو توافق المدرسين بالاجماع على استعمال مناهج تعليمية معينة، فإن التساؤل الموالي والمتعلق بالجانب التطبيقي يطرح نفسه كالتالي: هل يمكن اعتماد تمثيلات الطلبة كأداة فعالة لقياس أو تقييم المردود التربوي للمدرسين؟ من الصعب الجواب عن هذا السؤال بالإيجاب إذا تمحصنا الدراسات التي تمت في هذا الصدد، وفيما يلي استعراض لأهم المشاكل المتعلقة باعتماد تمثيلات الطلبة كوسيلة لقياس درجة نجاعة المدرسين في أداء عملهم التربوي.

### السمات الشخصية للمدرس

أوضحت العديد من الدراسات وجود علاقة وطيدة بين السمات الشخصية للمدرس وبين آراء الطلبة، بمعنى أن الطلبة لا يستطيعون التمييز بين السمات الشخصية للمدرس وبين محتوى الأسئلة المطروحة عليهم بخصوص المهارات التدريسية للمدرس أو مدى جودة المعلومات التي



حصلوها في المادة. وقبل إعطاء بعض الأمثلة من الدراسات التي تناولت هذا الجانب، أود أن أبدأ بتجربة علمية أنجزت في السبعينيات من القرن الماضي من طرف الباحثين نافتولين، وار، ودونلي (Naftulin. Ware. and Donnelly)، أصبح يصطلح عليها بتجربة الدكتور فوكس. فقد قام هؤلاء الباحثون باختيار عينة من المدرسين والإداريين للإستماع لمحاضرة حول تأثير الرياضيات على السلوك البشري، ثم تقييم مردود الأستاذ المحاضر، لكن مالم يكن في علم المدرسين والإداريين هو أن المدرس المحاضر ليس في حقيقة الأمر إلا ممثلاً مأجوراً من طرف الباحثين لإتمام خدعتهم. عند إتمام المحاضرة والتي كانت مليئة بالمغالطات وفارغة المحتوى، قام الحضور بالإدلاء بتمثلاتهم حول المحاضرة وكذا المستوى المعرفي للمحاضر المزوم، وكانت المفاجأة أن حصل الدكتور فوكس على أعلى الدرجات بفضل مهاراته التلقائية وروحه المرحة. وهكذا انطلت الحيلة على الحضور رغم أن من بين صفوفه أناسا حاصلين على شهادات جامعية. إذن إذا فشل هذا الحضور في التمييز بين محاضرة حقيقية وأخرى عديمة المحتوى بسبب تركيزهم على السمات الشخصية للمحاضر فما بالك بالطلبة والتلاميذ الذين هم أقل مستوى وتجربة في الحياة من هذا الحضور المثقف.

وفي دراسة ثانية قام الباحثان هامرمش وباركر (Hamermesh and Parker) بتحليل تمثلات حوالي 500 طالب وطالبة حول مردودية مدرسيهم، كما استفسروهم في نفس الوقت حول درجة الجاذبية لدى المدرسين عبر اعطائهم صوراً لحوالي 94 مدرسا قصد تقييمها على سلم من 1 الى 10. وبعد تحليل النتائج بينت الأرقام وجود علاقة وطيدة بين تمثلات الطلبة حول المدرسين ومستوى جاذبيتهم. فكلما ارتفع معدل الجاذبية الا وارتفع معه معدل المردودية التربوية، والعكس صحيح. ورغم أن الكاتيبين لا يدعوان لالغاء التمثلات خلال عملية تقييم الأداء فانهما يؤكدان على ضرورة التعامل بحذر مع آراء الطلبة والاحتياط من اعتبارها وسيلة فعالة لقياس مدى نجاعة المدرس في ايصال المعلومات الى الطلبة وتكوينهم تكويناً محكماً. اذن من الواضح أن السمات الشخصية للمدرس كمظهره وجنسه ودرجة الكريزما لديه بإمكانها التأثير على آراء الطلبة بشكل تستحيل معه معرفة ما اذا كانت آراءهم تعبر عن الرصيد العلمي والتربوي للمدرس أو عن مدى اعجابهم بصفاته الشخصية ودرجة شعبيته في صفوف الطلبة.

## تأثير العوامل الخارجية

بعد الحصول على نتائج التمثلات لجميع المدرسين عادة مايقوم المسؤولون الاداريون بمقارنة النتائج على صعيد المؤسسة وبعدها ينشرون المعدل العام لجميع المواد المدرسة. المشكل هنا يتجلى في عدم جواز مقارنة المواد المدرسة فيما بينها من ناحية المنهجية العلمية. فقد أوضحت دراسة قام بها كاشن (Cashin) أن المعدلات المحصل عليها في كليات الآداب والعلوم الانسانية أعلى من معدلات مواد التاريخ واللغات، كما أن مواد الاقتصاد والمعلومات والهندسة تتموقع في أسفل الهرم. لهذا لا يصح مثلا مقارنة معدل مدرس علم الاجتماع بمعدل مدرس الرياضيات. فمحتوى المادتين شديدي التباين وبالتالي فمن المنطقي أن آراء الطلبة ستكون متباينة عند الادلاء بتمثلاتهم في هذا الاطار. ونفس الملاحظة توصل اليها ألموني (Aleamoni) عندما أوضحت نتائج دراسته أن المعدلات المحصل عليها من طرف المدرسين في المواد الاجبارية أقل من تلك المحصل عليها في المواد الاختيارية. والسبب هنا نفسي لأن الطالب عندما يحس بأنه مجبر على دراسة المادة رغم عدم اهتمامه بها فان رده يكون سلبيا. وهذا عكس الحالة الثانية التي تكون فيها نفسية الطالب منشحة لأنه اختار المادة عن محض ارادته. اذن هناك العديد من العوامل الخارجية كنوعية المادة المدرسة، ودرجة صعوبتها والتوقيت الذي تدرس فيه ، التي يمكن أن تتداخل مع قرارات الطلبة عند ادلائهم بتمثلاتهم مما يؤثر على شرعية التمثلات كألية فعالة لقياس مدى نجاعة العملية التعليمية.

## تمثلات الطلبة والثقافة الاستهلاكية

مع اشتداد المنافسة بين الجامعات العامة والخصوصية حول استقطاب أكبر عدد ممكن من الطلبة، ومع قلة الموارد والاعانات الممنوحة للمؤسسات التعليمية من طرف الدولة والقطاع الخاص تحولت الجامعات الى شركات همها الأول والأخير تقديم الخدمات لزبائناتها من الطلبة والعمل على تحقيق رغباتهم قصد ضمان أكبر عدد من الأرباح. وكنتيجة لهذا التوجه الاستهلاكي للمؤسسات التعليمية تولد ضغط كبير لذى المدرسين من أجل ارضاء الزبائن، مما يدفعهم في كثير من الأحيان الى تبني سلوكات وطرق غير أخلاقية لضمان تمثلات ايجابية، مما يلحق الضرر بالمنضومة التعليمية على الأمد البعيد. ومن بين هذه السلوكات التساهل مع الطلبة في عملية تقييم أدائهم عبر تبسيط الامتحانات وتفاذي تحدي الطلبة لتقديم مستوى أفضل. وفي هذا المجال أوضح أستن (Astin) أن معدلات الطلبة باتت في ارتفاع مضطرد في

السنوات العشر الأخيرة. ففي سنة 2001 فاق عدد الحاصلين في جامعة هارفارد على ميزة مشرف جدا (أعلى درجة ممنوحة) 91 في المائة. كما أن العديد من الدراسات توصلت الى وجود علاقة مباشرة بين الدرجات الممنوحة للطلبة وتمثلاتهم حول المدرسين فكلمما ارتفعت درجات الطلبة الا وكانت آراؤهم وتمثلاتهم ايجابية (تشارلز أيزلر / Charles Eiszler أنتون أولينيك Anton Oleinik). ولعل أسوأ ما يمكن أن يحدث للمدرس أمام هذا التيار الاستهلاكي العاصف في وجهه هو التحايل على الطلبة والمسؤولين من أجل الحصول على درجات عالية. ولعل أبلغ مثال على ذلك ما حكاه بيتر ساكس (Peter Sacks) في كتابه حول تجربته كأستاذ جامعي، ففي بداية مشواره في التدريس حدث أن حصل بيتر ساك على معدلات منخفضة بالمقارنة مع زملائه مما نتج عنه توبيخه وتهديده بفقدان وظيفته ان استمر الحال على ما هو عليه، فما كان منه الا أن غير أسلوب تدريسه تغييرا جذريا لخدمة زبائنه الطلبة ونجح في ذلك نجاحا باهرا . وهذا ما فعله على لسانه للرفع من معدل تمثلات الطلبة وتحقيق شعبية أكبر بالمقارنة مع زملائه في التدريس:

وهكذا عقدت العزم على أن أصبح مدرسا لطيفا مثل حمل وديع. فابتكرت عالما من حولي لا يمكن فيه لأي تلميذ أن يرتكب خطأ كيفما كان نوعه. وفي هذا الإطار قمت بكل ما في وسعي قصد إسعاد تلامذتي في كل الأوقات والظروف حتى عندما يكون تصرفهم في غاية الوقاحة والصبيانية أو عندما يحصلون على نتائج مخيبة للأمال أو عندما لا يبذلون الجهد الكافي لإستيعاب الدروس. وهكذا فعندما يكون أحدهم في حاجة لمساعدتي فإنني أمد له يد العون في الحين، وإذا احتاج أحدهم الى دباسة أو منديل ولم يكونا عندي فإنني أقوم بالإعتذار فورا. وإذا رغبوا في مطالعة الجرائد خلال إلقاءي للدرس أو حتى الخروج من الفصل وسط المحاضرة فليس هناك من مانع للقيام بذلك. بإمكانكم أن تقولوا عني أنني انسان عديم الشخصية وهذا من من حقكم. ولكن بالنسبة لنوعية الثقافة التفهيمية السائدة داخل الجامعة فإن "تلامذتنا" كما يناديهم العديد من زملائنا أصبحوا يتوفرون على هامش كبير من السلطة لا يمكن لي معه إثارة غضبهم بإرغامهم على الخضوع للمطالب والتحديات التي كنت أظن في الماضي أنها جزء لا يتجزأ من المنظومة التعليمية.

وكخلاصة عامة فإن استعمال تمثلات الطلبة كألية لقياس مدى نجاعة العملية التربوية والاعتماد عليها في إصدار القرارات بشأن ترقية المدرسين يمكن أن تكون له عواقب وخيمة على التعليم والتعلم بحيث يدفع بالمدرسين الى تشجيع الخمول والكسل التربويين والدفع بمستوى التلاميذ الى الوراء بدل الأمام، إن هذه الطريقة في التعامل مع المدرسين عند تقييم

أدائهم تحولهم من مربيين للنشأ الى كائنات اقتصادية همها الأول والأخير ابتداء الطريقة المثلى للحصول على أكبر معدل من تمثلات الطلبة، بدل تركيز تفكيرهم على كيفية تحدي تلامذتهم لتحقيق أعلى مستوى من التعلم يجعل منهم مواطنين أكفاء قادرين على تدبير شؤونهم الشخصية والعملية والاجتماعية بامتياز.

#### 4. خاتمة

في هذا المقال تناولت بالفحص والتحليل بعض المشاكل العالقة باستعمال تمثلات الطلبة كألية لقياس جودة التعليم داخل المؤسسات التعليمية وكذا تقييم المردودية التربوية للمدرسين. وفيما يلي مجموعة من الخلاصات والمقترحات بخصوص طريقة استعمال تمثلات الطلبة على نحو أفضل:

◆ بما أن الغاية العميقة المتوخاة من تمثلات الطلبة هي تحسين مستوى التلاميذ والرفع من الأداء التربوي للمدرسين، فعليه يجب الابتعاد عن مقارنة معدلات المدرسين فيما بينهم. مبدأ التنافسية يجب أن تكون له غاية تربوية واضحة، والغاية التربوية من مقارنة معدلات المدرسين منعدمة.

◆ يجب الكف عن اختزال مردودية المدرسين على شكل نتائج رقمية تذهب مباشرة الى ملفه لاستعمالها عند حلول فترة الترقية. عوض التركيز على الأرقام يجب الجلوس مع المدرس لمناقشة كيفية الارتقاء بأدائه التربوي واعطائه نهجا واضح المعالم للرقى بمستواه فيما يعود بالنفع على تلامذته.

◆ عملية تقييم الأداء التربوي يجب أن تشمل آليات أخرى أكثر أهمية، منها على سبيل المثال تقييم زملاء العمل عن طريق تبادل الزيارات أثناء التدريس، وتحضير ملف تدريس يتضمن نماذج من الدروس والتحضير، بالإضافة الى الأدوات البيداغوجية المستعملة في التدريس.

◆ لدمقرطة عملية تقييم الأداء التربوي، يجب تعميم التقييم على جميع الأفراد المنخرطين في المنظومة التربوية بمن فيهم الرؤساء والمرؤوسون. عوض استعمال مبدأ القيادة الأفقية، يجب التفكير في مبدأ القيادة العمودية أو التشاورية والتي تعتبر الجميع قابلا للتقييم قصد تطوير كفاءاته العملية.

◆ تجب تدريب الطلبة على أهمية الادلاء بأراءهم وتمثلاتهم بطريقة أخلاقية وجدية

من أجل تطوير المنظومة التربوية، وفي هذا الاطار يجب اعطاؤهم دورة تكوينية في كيفية تفادي المزج بين المردود التربوي للمدرس وسماته الشخصية والكريزمية.

◆ يجب التنسيق بين المدرسين والمسؤولين الاداريين من أجل خلق برنامج متكامل للراقي بمستوى التعليم بالمؤسسة وبالقدرات التدريسية لكل مدرس. ويمكن لهذا البرنامج أن يشمل دورات تدريبية في كيفية استعمال المناهج الحديثة في التعليم، والطرق البيداغوجية الفعالة لتحفيز الطلبة لتقديم مستوى تعليمي أفضل.

◆ يجب تدريب المسؤولين الاداريين على كيفية التعامل مع تمثلات الطلبة وأخذ حالة كل مدرس على حذا. عندما يكتفي المسؤول بتصفح النتائج الرقمية الموضوعية بعناية داخل الجداول دون الأخذ بعين الاعتبار السياق العام للمادة والظروف المحيطة بتدريسها، فإن تأويلاته ستبقى سطحية وستفتقد للعمق التربوي.

◆ يجب تفادي استعمال تمثلات الطلبة كجهاز من طرف المسؤولين الاداريين للتحكم في مصير المدرسين ومستقبلهم. ان عملية اختزال المدرسين في مجرد أرقام هامشية سيؤدي بنا الى عالم جورج أورويل (George Orwell) في روايته 1984، هذا العالم الذي تتحول فيه القيم الانسانية الى مجرد أمور ثانوية ويصبح فيه الرؤوسون عبارة عن أناس عديمي الارادة والأحاسيس بسبب تحكم القوى السلطوية في مصيرهم، حيث يعملون طوال اليوم رغبة في ارضاء أخيهم الأكبر (Big Brother) الذي يمضي معظم وقته في مراقبة ورصد تحركاتهم. المدرس انسان شريف يجب احترام كرامته وأدميته وتمكينه من الوسائل الضرورية لكي ينجز عمله على أحسن وجه ويساهم في تربية الأجيال للمستقبل، وبدلا من استعمال آراء الطلبة والتلاميذ كأداة لكسر شوكة المدرسين وتضييق الخناق عليهم يجب توظيفها لتقوية عزائمهم وتطوير كفاءتهم التدريسية والتربوية.

## المراجع

Aleamoni, L. (1989). Typical faculty concerns about evaluation of teaching. In Aleamoni, L. M. (Ed.), *Techniques for evaluating and improving instruction*. Jossey-Bass: San Francisco, CA.

Astin, A. W. (1998). The changing American college student: Thirty-year trends. *Review of Higher Education*, 21, 115-135.

Cashin, W. E. (1989). *Defining and evaluating college teaching*. IDEA Paper No. 21. Center for Faculty Evaluation and Development. Manhattan, Kansas: Kansas State University,

Eiszler, C. (2002). College students' evaluations of teaching and grade inflation. *Research in Higher Education*, 43, (4).

Foucault, M. (1975). *Discipline and punish*. New York: Vintage.

Hamermesh, D. S., & Parker, A. M. (2005). Beauty in the classroom: Instructors' pulchritude and putative pedagogical productivity. *Economics of Education Review*, 24, 369-376.

Naftulin, D. H., Ware, J. E., and Donnelly, F. A. (1973). The doctor Fox lecture: a paradigm of educational seduction. *Journal of Medical Education*, 48, 630-635.

Oleinik, A. (2009). Does education corrupt? Theories of grade inflation. *Education Research Review*, 4 (2), 156-164.

Orwell, G. (1983). *Nineteen eighty-four*. Penguin: Harmondsworth.

Richards, J., & Rodgers, T. (2001). *Approaches and Methods in Language Teaching* (2nd ed.). Cambridge: Cambridge University Press.

Sacks, P. (1996). *Generation X goes to college: an eye-opening account of teaching in postmodern America*. Chicago: Open Court Publishing.

Seldin, P. and Associates (1999). *Changing practices in evaluating teaching – a practical guide to improved faculty performance and promotion/tenure decisions*. Bolton, MA: Anker Publishing Company, Inc.